رواية « الباتروس « (1) L'Albatros
لنجية عبير (دراسة وتحليل)

د.نصيرة شافع بلعيد
جامعة تلمسان

تمهيد:

تأثر المشهد الروائي في الجزائر بالأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية التي وسمت التجربة الجزائرية منذ مطلع التسعينيات وشكلت منعرجا حاسما في تاريخ الجزائر المعاصر ، فقد وقعت الجزائر في مواجهة دموية هي الأولى من نوعها، تشابكت فيها خيوط الأزمة إلى حدّ الحرب الأهلية غير المعلنة والتي هدّدت بنسف أركان الدولة وتقويض أسس المجتمع مما أحدث صدمة عنيفة في الوعي الشعبي والرسمي معا ،فتحول اهتمام جل الروائيين إلى التعبير في رواياتهم عن الحالة الراهنة التي تعيشها البلاد والشعب في الوقت ذاته. لقد عبرت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية واللغة الفرنسية عن العنف نتيجة لأحداث الإرهاب في العشرية الحمراء، فكانت ظاهرة الإرهاب في الأدب سمة قوية في الإنتاج الإبداعي الجزائري ،استحقت أن تدرس دراسة عميقة ، لأنها أضحت وقود الرواية وحطب السرد فيها ،

وبطموح إبداعي وبوعي نقدي ، دخلت الفضاء الروائي مجموعة من الكاتبات الجزائريات اللواتي عالجن ظاهرة الإرهاب ، من بينهنّ الروائية « **نجية عبير** « .

تعريف صاحبة الرواية:

ولدت الكاتبة و الشاعرة الجزائرية «نجية عبير « في قسنطينة يوم 16 سبتمبر سنة 1948 ، وبعد دراستها الجامعية في الولايات المتحدة الأمريكية ، درّست في الشرق الأوسط وفي الجزائر الأدب الأمريكي كما درست اللغة الإنجليزية في الجزائر العاصمة .

توفيت يوم 21 أكتوبر 2005 في سنّ 57 عاما إثر سكتة قلبية .

نشرت أوّل رواية سنة 2003 وقد حملت عنوان : « **قسنطينة آين عصافير الحائط**

« ،ثم نشرت رواية « **الباتروس** « سنة 2004 والتي صدرت عن دار النشر « مارسا»، والتي هي موضوع دراستنا ، ثم نشرت رواية « باب القنطرة « سنة 2005 والتي هي عبارة عن سيرة ذاتية، بالإضافة إلى مجموعة من القصائد الشعرية منها « السنونوة « و» عندما يختفي الحبّ» و» رسالة إلى قسنطينة «...

تعريف رواية « الباتروس» :

تصنّف رواية L'albatros ضمن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ، كما يمكن تصنيفها ضمن ما يسمّى بالأدب الاستعجالي La littérature de l'urgence الذي يواكب الحدث دون اختمار للتجربة، و غالبا ما يخلو هذا النوع من الأدب من الجوانب الإبداعية ، لأنّ الكاتب في مثل هذه الظروف يكون ملزما برصد ما يجري في المجتمع من أحداث ووقائع.

تعتبر هذه الرواية صورة للأحداث التي عاشتها الجزائر منذ 1988 والتي كان لها أبلغ الأثر في حياة كلّ جزائري ، فلا يوجد من لم تتأثر حياته بعد هيمنة المدّ الأصولي وتحوله إلى حمل السلاح في وجه كلّ من يخالفه الرأي بداية ثمّ إلى إرهاب وترويع الجميع في نهاية المطاف .

رواية « **الباتروس** « هي محاولة فنية سردية تطرح الكثير من قضايا الراهن الجزائري بتفرعاته السوسيوثقافية وخلفياته التاريخية ، وتسلط الضوء على معاناة المرأة الجزائرية في تلك العشرية الحمراء .

سيميائية الغلاف : المتأمل لغلاف الرواية ، يلاحظ أنّ اللون الأحمر يغطي أغلب مساحة الغلاف ، تقريبا ثلثي المساحة والثلث الباقي يميزه اللون الأبيض ، وكأنّ الكاتبة تريد أن تلفت انتباهنا إلى الإرهاب الذي ساد في الجزائر في تلك العشرية الحمراء على حساب الأمن والسلام ، لأنّ الأحمر يرمز إلى الدم بينما الأبيض يرمز إلى السلام .

ويرمز لون الدمّ إلى الثأر والضغينة ، فهو تأكيد على الغضب الجماهيري ورفضه لتلك الممارسات لأنّ اللون الأحمر في التراث مرتبط بالغزو والشجاعة والأخذ بالثأر والصمود في وجه العنف .

وداخل هذه المساحة التي يذوب فيها البياض وسط صخب الدم يتجلى مربع أسود في داخله البطرسي ، وهو طائر بحري كبير يرمز إلى الحرية التي أنهكها الإرهاب

لأنّ الأسود يرمز إلى الموت والحزن والألم ، كما يدل على التطرف وممارسة العنف والإرهاب ،ويرمز السواد أيضا إلى سواد القلوب التي تقتل الإنسان بغير وجه حقّ ، ذلك هو الراهن الجزائري الذي أضحى مظلما لكثرة النار والرصاص ، وذلك هو الكابوس المزعج الذي أرغمت الجزائر على دخوله .

سيميائية العنوان : يثير العنوان شهية القراءة ويجدب القارئ ، فالباتروس يرمز إلى الحرية ، هذا الكنز الثمين الذي لم تحصّل عليه الجزائر إلاّ بعد 132 سنة من الإستدمار

وبعد ثورة مجيدة دفعت خلالها مليون ونصف من الشهداء .هذه الحرية جاء الإرهاب ليغيبها ويلغيها ، وقد كتب العنوان باللونين الأحمر والأبيض ، لكن غلب عليه الأبيض الذي غاص في المساحة الحمراء ، إشارة إلى الدم الذي حاول إلغاء الحرية . وتحاول الحرية فرض نفسها من خلال بسط الطائر لجناحيه المنهكين .

كما يرمز العنوان إلى « نجمة» بطلة الرواية التي كانت تحلم أن تكون بطرسيا يحلق بجناحيه بعيدا عن الأزمة وصديقات السوء .

ملخص الرواية:

الباتروس صورة للأحزان والآلام التي عانت منها المرأة الجزائرية خلال مرحلة من مراحل حياة هذا الوطن الجريح ، لقد كتبت « **نجية عبير** « روايتها من خلال بطلتها «**نجمة**» والتي سردت الرواية على لسانها ، ونسجت أحداثها من خلال علاقتها بمجموعة من النساء ، تعاني كلّ واحدة منهنّ بطريقة خاصة ، إلاّ أنّ معاناتهنّ كلهنّ تصب في معاناة نجمة .

نجمة مدرّسة مجتهدة ومخلصة تستمتع بالقيام بواجبها على أكمل وجه ، واجبها في المدرسة وفي البيت من خلال تربية أبنائها ، غير أنها تصاب بمرض فتتقرّب إلى الله بالتوبة والعبادة .لقد كانت تلتقي بميمي زوجة الصحفي عند عودتها من المدرسة ، كما أنها تعرف مجموعة من النساء على رأسهنّ باريزة ، هذه المرأة القوية التي أحبت البحر وصادقته فمارست عملا رجاليا ، إذ أصبحت الصيادة الوحيدة في البلد .أحبّت عملها وأخلصت له ، فنجحت فيه حتى تفوقت على الرجال فأصبحوا يضايقونها في عملها حسدا من عند أنفسهنّ وإرضاء لذكورتهم .

نسمة خياطة لها خمسة أطفال صديقتها زوزو ، صورية خياطة منظمة تحترم

الوقت كثيرا وفوزية تملك محلّ الخياطة ، أمّا شريفة فإنها أمية تعمل عند نجمة لتربي أبناءها الثمانية لأنّ زوجها مريض ، إلاّ أنّها تتركها لأنّها وجدت وظيفة حكومية ، فينزل الخبر على نجمة كالصاعقة ، غير أنّها تجد نورة بديلة لها . هذه الفتاة التي تركت المدرسة لتساعد والدتها في تربية إخوتها بعدما تخلى عنهم الوالد من أجل امرأة أخرى ، وقد حاولت هي وآمنة مساعدة نجمة في مرضها عن طريق رفع معنوياتها .

زبيدة تتميّز بهواية الكتابة وهي صديقة نجمة التي تتبادل معها الأفكار والآراء ، زوجها موظف مهم في أهم شركة في البلاد .

عتيقة تعيش حياة برجوازية صغيرة لأنّ زوجها رجل أعمال ، حليمة امرأة وفية للتقاليد مخلصة في عملها ، وتكتم الأسرار لذلك يعتمد عليها زوجها اعتمادا كليا .

لقد استعانت نجمة بالصلاة والقرآن للتغلب على مرضها ، ثمّ ذهبت إلى عيادة نفسية في العاصمة ، وأصبحت تتردّد على المسجد يوم الجمعة ، كانت تعالج روحها بالعبادة وتعالج جسمها بالأدوية ، وقد ساعدها الطبيب النفسي فؤاد كثيرا ، إذ كان بمثابة الصديق .

في المسجد التقت لأول مرّة بحواء ، هذه المرأة الجميلة التي دعتها لزيارتها في بيتها ، زوجة جمال الذي كانت تربطها به علاقة متينة وفقدته في أحد أيام الصيف ، فترك فراغا رهيبا في حياتها .

عاشت نجمة فترة في الأردن عندما كان زوجها في تربص وهناك أجرت عملية جراحية وعندما رجعت إلى الوطن لاحظت تغيرات جذرية تتمثل في ظهور الإسلاميين وكثرة الشباب الملتحي والأئمة الصغار والجلسات الدينية في المساجد والبيوت ، القرآن في كلّ مكان ، في المساجد والمقاهي والشوارع ، المواضيع أغلبها تدور حول المرأة : يجب على المرأة ... يحرم على المرأة... والحجاب يفرض على المرأة .

تريد نجمة مواصلة دراستها الجامعية ، فيسخر منها زوجها المثقف ، وهنا تتجلى النظرة الدونية للمرأة في أبلغ صورها حتى من المثقفين ، كما تلومها حواء على الدراسة على أساس أنها ستكون على حساب أسرتها وأنّ المكان المناسب للمرأة هو البيت .

نجمة تنزع حجابها لانزعاجها من تغطية الرأس فتحاسبها حواء على ذلك وعلى انقطاعها عن الذهاب إلى المسجد ، تنزعج نجمة من تدخل حواء في خصوصياتها لأنّها

تتدخل باسم الدين وفي المقابل تريد أن تحرم أبناء زوجها من إرثهم كما حرمتهم من أبيهم .

مع ذلك تحاول حواء عدّة مرات التدخل في شؤون نجمة كما تحاول أن تدرجها في مجموعة النساء المتجلببات اللواتي كانت تقيم لهنّ حلقات الدرس في بيتها غير أنّ نجمة ترفض ذلك بقوّة لأنّها تجد أنّ ضميرها مرتاح وأنّها تعبد الله بطريقتها الخاصّة التي تختلف عن طريقة حواء .

وتكره نجمة حواء عندما تعرف أسرار ماضيها عن طريق الحلاقة ، فقد كانت حواء تعمل كاتبة عند جمال وأوقعته في غرامها ثم اختطفته من زوجته التي طلقها بسببها ومن أبنائه الذين تخلّى عنهم ، فتزوجها وجعلته يكتب الفيلا باسمها مع أنّ جمال زوجها الثالث .

وفي سنة 1991 نجح حزب الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الانتخابات بالغشّ والتزوير ثمّ ألغيت هذه الانتخابات ، فأصبح الأئمة يؤججون نار الفتنة ويدعون الناس إلى الجهاد ، فظهر الإرهاب في أبشع صوره يقوده الشباب الملتحي المغرّر به .

غنية صديقة حواء وزعيمة النساء المتطرفات تمنع بناتها من مواصلة الدراسة بحجّة أنّ المدرسة تضيّعهن ولا يحتجن منها إلاّ تعلم الكتابة والقراءة . الحلاقة تخبر نجمة أنّ حواء تزوجت مرّة أخرى من ثري يخضّب لحيته بالحنّاء ، فتحرم أيضا بناتها من الدراسة ، فتجيبها نجمة أنّ المتطرفين يرتكبون المعاصي باسم الدين ، لقد فقدت صوابها لأنها ضيّعت مستقبل بناتها رغم أنّ التعليم إجباري في بلدنا إلى 16 سنة .

حواء ترتدي الجلباب الأسود الذي يغطيها من رأسها إلى قدميها ويجعلها تبدو كأنّها كتلة سوداء ، فتهاجم نجمة الجلباب وتعتبره دخيلا على الجزائر ، مع ذلك عندما تجمع كلّ صديقاتها في بيتها من أجل التسلية فإنها لا تنسى حواء .

وبينما كانت نجمة تقاوم الموت ، كان الرجال والنساء والأطفال يصادفونه في كلّ مكان ، كانوا يموتون أبرياء دون ذنب ودون مقاومة ، نساء وفتيات تعرضن للاغتصاب ، أصبحت الجزائر جحيم الجزائريين فقد استقرّ إرهاب الإسلاميين المتطرفين في البلاد بمباركة شخصيات هامة لحمام الدماء .

لقد قدم المتطرفون للنّاس إسلاما لا يعرف الغفران ولا التسامح ، إسلاما يسمح

بالقتل باسمه ، إسلاما يختلف عن الإسلام الذي عرفناه عند الآباء والأجداد ، ففي كلّ يوم تحفر قبور الأبرياء ، ترويها الدماء والدموع .

حواء تزور نجمة وتبرّر توقيفها لبناتها عن الدراسة بأنّ الزواج أحسن لهم وأنفع وتخبرها أنّ ابنها هو النقطة السوداء في حياتها لأنّه يسبّب لها المشاكل وقد فضّل العيش عند جدّته،

وبعد مدّة سمعت نجمة أنّ الدرك حاصر سيارة حواء بسبب تهريب سجائر المارلبورو وغيرها.

حليمة ميمي وعتيقة لم يسلمن من الإرهاب ، فقد فقدن أزواجهنّ وتعرضن لألم الترمل ، زوج حليمة تلقى رصاصة في قفاه عندما كان يخرج محفظته من سيارته وحليمة كانت تنتظر ابنتها الوحيدة التي لن يراها والدها، لقد تركت العيادة رفقة الجنود الذين رافقوها إكراما لزوجها الضابط .

زوج ميمي قتل أمام بابه من طرف مصطاف مزيّف كان يخفي سلاحه تحت منشفة ، بينما زوج عتيقة تلقى ثلاث رصاصات في صدره في مكتبه ، فأصبحت عتيقة تسيّر شؤون العائلة . بسمة أغلقت ملجأها لأنّ نضالها من أجل الحيوانات أصبح مضحكا ، ففي هذا البلد حتى الإنسان لا يجد ملجأ له من الفقر و المعاناة .

فوزية باعت محلّ الخياطة واستأجرت فيلا في باريس التي استقرت بها واشترت فيه فندقا ومطعما لأنها وجدت أنّ سلامة أبنائها ومستقبلهم لم يعد متوفرا في الجزائر ، فالنظرة إلى الأمور تختلف من شخص إلى آخر حسب الوسائل والقيم .

الحلاقة مصدر الأخبار لم تتزوج وأصبحت تعمل في خدمة أميرة خليجية ، أما زبيدة فقد نشرت أول كتاب لها وهي تتصل بنجمة عن طريق الهاتف ، حواء فقدت زوجها الملتحي أثناء معركة مع الدرك الوطني وقد رأتها جارة نجمة بدون جلباب ،بينما قرّرت نجمة أن تهب أجنحة لروحها وأن تطبق المثل القائل : « الوحدة أحسن من صديق السوء « .

دراسة الرواية:

تبدو الكاتبة من خلال هذه الرواية ذات ثقافة واسعة ومتشعبة ، فهي تحسن اللغتين الفرنسية والانجليزية ، وقد كتبت رواية « الباتروس» بلغة جميلة رفيعة ، تنمّ

عن امتلاك صاحبتها لناصية اللغة الفرنسية ،كما أنها تمتلك ثقافة دينية تظهر من خلال تطرقها إلى الكثير من سور القرآن الكريم كسورة النمل والنحل ... واستشهادها ببعض الأحاديث النبوية وتعرضها لبعض القضايا الدينية كتعدد الزوجات وغيرة عائشة رضي الله عنها من خديجة رضي الله عنها والقراءات ...

كما يتجلى إلمامها بالفلسفة الغربية من خلال حديثها عن بعض آراء المفكرين الفرنسيين مثل فولتير voltaire وروسو Rousseau .

لقد حلّلت الكاتبة في هذه الرواية وضعية المرأة الجزائرية ومعاناتها من الإرهاب المادي والمعنوي بكلّ شجاعة وجرأة ، فبالإضافة إلى معاناتها من القتل والخوف والحزن والقلق والاغتصاب فهي تعاني أيضا من النظرة الدونية من طرف الرجل الذي سيطرت عليه الذكورة فأصبح ينظر إليها على أنها ناقصة عقلا ودينا وأنها خلقت من ضلع أعوج كما أنها تعاني من مشكلة الطلاق والتعدد والترمل .

كما تطرقت الكاتبة من خلال هذه الرواية أيضا إلى بعض القضايا الهامة مثل قضية التعريب وفشلها في الجزائر بسبب عدم التخطيط لها ودراستها كما ينبغي ، كما عالجت إلى فشل المنظومة التربوية والتعليم الأساسي وانتشار البطالة مما ساعد على تفشي الإرهاب بين الشباب .

وقد أعجب بهذه الرواية الكثير من النقاد وعلى رأسهم البروفيسور " ماكس فيجا ريتر"، وهو أستاذ فخري في كليرمون فيران الذي قال " الباتروس لعبير ناجية في رواية رائعة من الخيال، والنكتة، الرقة والتواضع والقسوة في آن واحد. عرفت نجية عبير كيف تعبر عن حالة المرأة الجزائرية في مواجهة السيطرة الذكورية أحسن من غيرها من الكتاب".(2)

وقال أيضا « الباتروس « أكثر من رواية امرأة، إنها أزمة مجتمع ، فكرية وروحية ، المرأة في مركزها ليست فقط الشاهد وإنما هي أيضا الفاعل الرئيسي ، حتى لو كان يبدو أنها خفضت إلى المجال الخاص، ربما على وجه التحديد لأنها أحيلت من قبل القوى المعارضة»(3)

خاتمة:

« الباتروس « رواية موازية لروايتيها الذاتيتين السابقتين حيث تتضمن نقدا اجتماعيا وسياسيا لاذعا، والمثير للانتباه أنّ بطلتها حملت اسم « نجمة « ،و لكأن هذا الاسم الروائي الجميل صار « أيقونة « أمل وعنوان نضال ضد كل أشكال التعسف والظلم والعنصرية الاجتماعية والتمييز بين الجنسيين والتقاليد البائدة. و الحقيقة أن نجية عبير بما ملكته من نفس طويل في الكتابة و إتقان مرفق باطلاع ممتاز على اللغات الأجنبية، على غرار الفرنسية التي درّستها في الأردن، والإنجليزية التي درّستها في الولايات المتحدة الأمريكية ودرّستها فيما بعد بالمدرسة العليا للأساتذة بالعاصمة، وبثانوية في الرويبة، كل هذا مهد لها السبيل لاقتحام عالم الكتابة باقتدار كبير، فضلا عن موهبتها التي لا تخطئها العين في تدبيج الشعر والقصة القصيرة.

الهوامش:

1- Albatros – nadjia abeer – editions marsa – 2004.

2-Moncef B – Une grande dame des lettres nous quitte - La nouvelle republique – 24 octobre 2005.

3- O Hind – constantine perd son Albatros - l'expression – 24 octobre 2005